أيّ غدٍ في "لن نموت غداً" ؟

بقلم غسان كنفاني

(« انا مش عايزك تعيطي ابدا ، ابدا .. كل ما حسيتي متدايقة فكري باللي حقولهولك : احنا يا عيشة مش حنموت بكره .. فاهمة ؟ مش حنموت بكره ، انا مش حموت بكرة وانت مش حتموتي بكرة .. »

وأعادت كلماته من بعده « احنا مش حنموت بكرة » فتوضحت معانيها ... *)

لنترك المؤلفة هنا ، قبل ان تكمل ، ولنسأل السؤال الذي يتبادر الى الذهن حين يقرأ المرء مثل هذا المقطع – وحين يقرأ عنوان الرواية على الاخص – : ما هو الغد الذي لا نريد ان نموت فيه او قبله ..؟ ولماذا نريد ان نحيا ذلك الغد ؟ وبكلمة اكثر مباشرة : أي غد ؟

يبدو ان هذه الاسئلة ، واجوبتها ، يجب ان تكون الرواية ، وفي داخل الاتساع الرهيب المفتوح امام هذه الاسئلة المصيرية يتوقع قارىء « لن نموت غدا » ان تدور الشخصيات والاحداث .. اترانا نظلم الرواية حين نفترض ذلك ؟

ما من شك في اننا نظلم « لن نموت غدا » فعلا اذا اعتقدنا ان الرواية يجب ان تكون جوابا مباشرا على مثل هذا التساؤل المباشر، ولكن هذه الاسئلة تبقى رئيسية واساسية اذا حاولنا اكتشاف ما اذا كانت الرواية ذاتها كشخصيات وكاحداث قادرة ، عبر تجمعها النهائي ، على اعطاء ملامح الجواب .. انه من الضروري – بالنسبة لي – حين اقرأ عنوان الكتاب : « لن نموت غدا » ان اتساءل عن طبيعة هذا الغد الذي سيستحق حياتنا ..

وكنقطة بدء في البحث عن جواب لهذه الاسئلة المصيرية يجب ان نرفض الجواب المباشر الذي وضعته المؤلفة تماما تحت كلام احمد الذي سجلناه في اول هذه المقالة ، بل انها وضعته ، مباشرة ، وراء نقطتين تفسيريتين :

« واعادت كلماته من بعده : « احنا مش حنموت بكره » ، فتوضحت معانيها : دنيا بأكملها ، دنيا بلا حدود ، دنيا بلا نهاية ... احنا مش حنموت بكرة تعني المستقبل ، تعني معانيه كلها ، واحنا مش حنموت بكره هي العبارة التي يكاد ينطق بها العالم الذي وجدته في القاهرة، العالم الجديد الذي يتفتح من ذلك الاطار الخشبي البسيط فينفض عنه الخمول ويشمر عن ساعديه ، ثم يرمي بنفسه في خضم الحياة ... » (١)

هذه الصفحة التفسيرية يجب ان لا تهمنا كثيرا لاننا ، منذ البدء ، رفضنا الجواب المباشر التعليمي ، والذي نريده الان هو ان ترسم لنا شخصية عائشة ، ومطامحها وعلاقاتها واصدقاؤها ان يرسم لنا ذلك كله الغد الذي يبدأ حين تنتهي الرواية : ان يرسمه وان يضعنا امامه بالقوة ، ان يجبرنا – دون تأثير مباشر – على تصوره وفهمه ..

* * *

عائشة فتاة ارستقراطية من بيروت لها اخ تستطيع ان تبوح له بكل ما يجول في خاطرها ولها ام هادئة محبة واب شرقي في حدود معقولة .. وبالاجمال فان مشكلتها ليست في محيط العائلة ، وهذه نقطة اولى تسجل للمؤلفة لمجرد انها استطاعت الابتعاد بنا عن الجو التقليدي الملازم لكل عمل يتعلق بالمرأة الشرقية – من ناحية – ولكونها حولت نظرنا منذ البدء ، وبصورة حاسمة ، الى المشكلة التي تريد ان تتحدث عنها وتعالجها دون ان تشوشها وتفقدها طابعها الخاص ، من ناحية اخرى .

ولكن المؤلفة لم تشأ ، كما يبدو ، ان تسقط مشكلة «العائلة» في حياة المرأة الشرقية اسقاطا كاملا بالرغم من انها لم تشأ التعرض لها بشكل كامل ، ولذلك فقد جعلتها « مشكلة مرافقة » تسير الى جانب الحدث الاصلي ، والشخصية الاصلية : فناديا ، صديقة عائشةالحميمة، زوجة لرجل اسمه صلاح يمثل – دون ان يعي – الجيل المعاصر تقريبا للرجل الشرقي الذي ما زال يعتقد بانه محور اية علاقة تقوم بينه وبين اية امرأة ، والموضوع ليس موضوع « كمية » الحب الذي يستطيع ان يمنحه لزوجته ولكن موضوع هذه « الكمية » التي يجب ان يمنحها بوحي من انه عنصر مساو في العلاقة مع المرأة .. الامر الذي لم يخطر قط على بال السيد صلاح والذي ادى بالتدريج الى لجوء امرأته لحب رجل اخر هو – لسوء الحظ – كمال ، شقيقعائشة، بطلة الرواية .

ولكن هذا كله يجب ان لا يلفت نظرنا كثيرا في غمرة تتبعنا لموضوعنا الاصلي ، فالواقع ان شخصية كمال – شقيق عائشة – غير مرسومة بدقة وهي شخصية مشوشة الى حد بعيد (٢) ، اما شخصية ناديا فهي من النوع الذي يمثل الجانب السلبي في جواب السؤال الرئيسي الذي يجب ان يبقى في ذهننا على الدوام وهو : « ...ولماذا يجب ان لا نموت غدا ؟ » اذ انها تعيش – ويبدو انها سوف تعيش – حياة ازدواجية موزعة بين المثل الاعلى المفتعل بالحفاظ على بيت الزوجية والولد وبين الطاقة النقية التي تجذبها الى كمال ، ولانها لم تقرر سوى ان تبقى الامور معلقة فهي تجبرنا على الافتراض بانها نموذج لجانب السلبية في جوابنا للسؤال الدائم : لماذا يجب ان لانموت غدا ؟ ولا شك في ان شخصية صلاح شخصية باهتة مقدمة بشكل تقريري عبر روايات المؤلفة وزوجته ، ولا علاقة لها بالموضوع الاصلي.

في هذا الجو تدور عائشة . مشكلتها ، بكل بساطة ، هي انها تريد ان تجسد كل ما تجده جميلا في هذه الدنيا – ص ٨٦ – وان تدخل عالم الكتابة – ص ٢٣٢ – وان تنتج وتمنح مجتمعها شيئا ما – ص ٢٤٢ – .

ان الدافع الرئيسي لهذا كله هو شعور مرير بالتفاهة واللاجدوى

---

* – لن نموت غدا تأليف ليلى عسيران – نشر دار الطليعة ، ٢٥٧ صفحة ، ٣٥٠ ق.ل.

(١) ص ٢٤٣ .

(٢) بينما يرفض كمال فكرة ان تعمل اخته عائشة في الصحافة قائلا : « اختي تعمل في الصحافة ؟ هل جننت ؟.. (انت) اعلم الناس بجو الصحافة » (ص ٢٨) ، فهو لا يجد غضاضة في ان تبوح له بان صديقه قبلها دون ان يغضب او حتى يتضايق (ص ٨٧) بل انه يجد الامر مسليا ..

يعرفه جيدا من يعرف سطحية الحياة الارستقراطية ـ هنا ـ وعلاقاتها ومطامحها الصغيرة غير ذات القيمة ، وفي غمرة هذه الحياة التي اتاحت لعائشة كل شيء موجود دون ان تتيح لها الشيء الوحيد الذي تريده ، ينمو شعورها الآسن بالغربة والضياع .. وفي هذه الفترة الموزعة بين التفاهة واللاجدوى يموت والدها فجأة فيزداد شعورها بالتوحد وبالغربة مما يدفعها ـ ويدفع اهلها ـ للاقتناع بضرورة تغيير الجو عند قريبة لهم في القاهرة ..

عن طريق مصادفة معقولة تقابل عائشة الصحفي شريف عامر الذي يقدمها لمجموعة من الفنانين والكتاب والشعراء الذين يعملون في جريدته الشهيرة ، وسرعان ما تجد عائشة في هذه المجموعة من الناس المتفوقين عن طريق تجسيد مطامحهم بالانتاج الفني، وسرعان ما تجد في هذه المجموعة نفسها .. وتجد فيها ، ايضا ، تجسيدا فذا للاحلام التي كانت ترتاح الى مجرد تصورها . وها من شك في ان هذا « الارتياح العاطفي » الذي يحدث لعائشة لاول مرة يدفعها للثقة بنفسها ، ومرة اخرى تأتي قصة الحب حين تجد عائشة ، في الرسام احمد ، حلمها الكبير الفني فتسقط في غرامه .. هو الذي يمدها بمزيد من الثقة وهو الذي يفتح امامها ـ بشخصيته وبريشته ـ ابواب الغد الآمل، الغد الذي سيستحق حياتنا وستستحقه حياتنا ، الغد العاطي ، المنتج، الذي يعني المستقبل حقا ..

* * *

ان المؤلفة تضع المشكلة بكل وضوح في مواجهة البطلة ومواجهة القارىء ، تضعها كما يضع المزارع شتلة يافعة ثمينة في الارض : ينظف حولها بعناية كي لا تختفي بين الاعشاب الاقل قيمة وكي تتيسر رؤيتها بوضوح ..

المؤلفة تضع عائشة في مواجهة مشكلة واحدة و « تحرمها » من كافة المشاكل الاخرى التي تترافق عادة مع مثل هذه المشكلة ، واذا كانت قد فعلت ذلك كي تيسر للقارىء فرصة الملاحظة المركزة فان هذا قد جعل نموذج عائشة اقل شيوعا مما يجب ان يكون وانقص كثيرا من حدة ملامحها ووضوحها واكثر اختصارا من مراحل صراعها وجعل الرواية كلها ـ بالتالي ـ اقصر مما يجب ان تكون وربما أقل عمقا ..

ولست اسجل هذا لانال من قيمة الرواية بل لاشير الى انه كان من الممكن ان يأتي « الغد » في الرواية اكثر قيمة واكثر اهمية وقبل كل شيء اكثر وضوحا لو عيشت المؤلفة عائشتها في جو المشاكل الكاملة التي ترسم الخلفية المعقدة ـ والصحيحة ـ لفتاة شرقية تعاني مشكلة الخلق ..

ولكن يجب ان لا يكون هذا من اختصاص المقال ، فثمة من يقول بأن مهمة الناقد هي ان يقبل العمل الادبي المطروح امامه دون أي «لو»، وان «لو» هذه هي كلمة لا يحق له استعمالها وانها تبقى ملك الكاتب نهائيا ، وان مهمة الناقد ـ في هذا المجال ـ هي معالجة ما بين يديه كما هو .. ان هذا يضعنا مباشرة في مواجهة سؤالنا التقليدي : لماذا يجب ان لا تموت غدا ؟ وامام جوابه كما ورد في الرواية .

لقد قدمت المؤلفة جوين مختلفين تماما في فصلين يوجد بينهما فرق فني واضح : قدمت لنا في الفصل الاول جو الارستقراطية التافه، الذي لا هدف له ، القاتل برغم كل مغرياته ، الحافل بما لا قيمة لهم ولهن ، البعيد عن نموذج مثل نموذج عائشة ، وقدمت في الفصل الثاني جو العمل المنتج الخلاق ، الحافل بالشخصيات النبيلة الهادفة، الطامح الى شيء ذي قيمة ، القريب جدا من نموذج مثل نموذج عائشة وكان الرابط بين هذين الجوين ـ والفصلين ـ موت الاب الذي لا يشكل في الواقع علاقة منطقية تتعلق بالاحداث نفسها والذي كان من الممكن ـ ها نحن ذا نعود الى « لو » المحرمة مرة اخرى ـ ان يغني القصة ، كرابط ومعنى ، لو استبدل بحدث يتعلق مباشرة بما سبق وبما سيأتي ..

عائشة ، اذن ، ترفض جوا بكامله لانه يعكس طبقة متخلفة من الناس ، متخلفة خلقيا ومعنويا وفكريا ، ولكنها لا تقوم بمبادرة الرفض العملي الا حين تعثر على « الجاذب » الذي يشدها الى الطرف الاخر من الخط الوهمي المرسوم في نفسيتها وعقليتها ..

انها تريد ان تعيش لان رجالا ونساء ، رأتهم بعينيها ، مضوا يمارسون وجودهم عن طريق الانتاج ، وان هؤلاء الرجال ـ الذين لا يملكون سوى مواهبهم ومطامحهم ـ قد ورثوا في مجال الاولوية طبقة ارستقراطية طويلة عريضة لم تجد بدا من الاعتراف بهزيمتها فيما هي آخذة في الغوص داخل التراب يوما اثر يوم (ص ١٤٧) ..

ان عائشة ذات اهمية ـ رغم عدم شيوعها كنموذج ـ لان تغيرها لم يكن وليد الشعور بالهزيمة بقدر ما كان وليد الاعتراف بالتفاهة، ان اكتشافها الاخير لفشل « الدلال الارستقراطي السعيد » لم يحدث حين شاهدت مقتله في القاهرة بل حدث في بيروت نفسها ، ولكن الاكتشاف المجرد لم يبلغ من القوة حدا يحملها الى التصميم على ان لا تموت غدا بل كان عليها ان تنتظر لترى ذلك « الغد » بعينيها ، في بيت هنري الرسام ، الحافل باكثر من شمس واحدة متوهجة .

من هذه الناحية فقط تنطبق عائشة انطباقا كاملا على نموذج مثالي لنفسية المرأة الشرقية ، الان ، المرأة الشرقية التي تريد ان تخلق لتعيش وان تعيش لتخلق .. ما زال الرجل النبيل الانسان هو الوحيد القادر على ان يحطم ذلك الجدار البارد القائم في عقليتها وارادتها بين مجرد رفضها وبين ضرورة انطلاقها .. ان رجلا مثل نبيه (٣) لا يقدر ابدا على اتكاء المرأة لتقوم بقفزتها الملحة .. ولكن احمد ، الفنان الانسان المنتج ، يستطيع ذلك .. ومن هنا احب ان اعتبر بان نبيها هو عكس احمد في الرواية تماما مثلما تقف ناديا مقابل عائشة .. وان نبيها وناديا يحتلان في الرواية مركزا في غاية الاهمية ، لا يقل قيمة ابدا عن مركز عائشة وأحمد ..

لو انتهت القصة عند انتهاء علاقة نبيه بعائشة ، أو عند بدايتها، لتحولت عائشة الى بطلة « وجودية » لها مشكلتها السطحية الاقرب الى العقدة ، لتحولت ـ في الواقع ـ الى بطلة اخرى تضاف الى اكداس البطلات التي شهدتها « الرواية النسائية العربية » في السنوات الخمس الماضيات ، ولكن الفصل الثاني لم يدفع بعائشة الى مستوى جديد في التفكير والفعل فقط بل دفع « بالرواية النسائية العربية » خطوة جديدة في طريق اخراج المرأة العربية من حدودها الروائية التي رسمها تفكير انعكاسي ناقل دون تفاعل حقيقي مع البطلة الحقيقية وجوها وعلاقاتها ومطامحها الواقعية .

بعد ذلك كله سوف اكتشف بان غد عائشة غد حافل باكثر من مجرد مطامحها في الخلق وفي « نقل ما هو جميل » وفي « دخول عالم الكتابة » لان الدوافع ـ السلبية والايجابية ـ اكبر واضخم واكثر تشعبا وتعقيدا ، وان غدها ، في الواقع ، هو غد الثورة بكل ما في هذه الكلمة من اتساع وعمق ورفض وبناء ، وان ذلك فقط يجعلها تستحقه .

كيف قالت ليلى عسيران ذلك كله في « لن نموت غدا » ؟ ان الجواب على هذا السؤال يطرح موضوع الناحية الفنية في العمل، وهنا يجب ـ مرة اخرى ـ ان نميز بكل وضوح بين الفصل الاول والفصل الثاني ..

القارىء الذي يصل الى الفصل الثاني في « لن نموت غدا » لن يغفر لليلى عسيران مطلقا سماحها للفصل الاول بالذهاب الى المطبعة.. ويتساءل القارىء عن السبب في ذلك لان مجرد اعادة كتابة الفصل الاول والارتفاع به الى مستوى الفصل الثاني كان قادرا على دفع الرواية دفعا مرموقا الى الامام اذ ان الفرق بين هذين الفصلين ليس فرقا يسيرا ، والكاتب القادر على كتابة الفصل الثاني لا يمكن ان يقع

---

(٣) شاب تعتقد عائشة انه ما تصبو اليه في الجزء الاول من الرواية الا انه يثبت بانه لا يختلف عن الاخرين الذين يعتبرون العلاقة مع المرأة مجرد عملية « صيد » ناجحة ..

في خطأ ترك الفصل الاول على حاله الا اذا كان راغبا رغبة جنونية، في طبع الكتاب ونشره باسرع ما يمكن .. وحتى في هذه الحالة يظل الخطأ خطأ لا يغفر حتى لو كانت المؤلفة « عائشة » نفسها ، بكل ما في جوانحها من توق حياتي للكتابة .!

في الفصل الاول تشير المؤلفة باصابعها العشرة الى المشاكل، وتزحم الحوار بمناقشات فكرية لا ضرورة لها ، ورغم ذلك كله فان الاحداث والاوصاف نفسها توحي بالمشاكل اكثر مما تفعل «المحاضرات» والمناقشات الفكرية ، وامام ايحاء الاحداث والنماذج تبدو الاشارات المباشرة في المناقشات العديدة الى مشاكل البطلة ، تبقى هذه الاشارات كسيحة وعاجزة ومفتعلة ومعرقلة .. ومن ناحية اخرى فان « زاوية الرواية » تواصل تغيرها متنقلة من مونولوج داخلي الى خارجي الى زاوية بعيدة ، طورا مع هذا وطورا مع ذاك بحيث يؤثر هذا كله في تحقيق التوازن الذي تتطلبه رواية ذات بعد رئيسي واحد مثل « لن نموت غدا » ..

ولكن ذلك كله يختفي ، تقريبا ، في الفصل الثاني ، فتأخذ القضايا مكانها الطبيعي في الاحداث والشخصيات ، وتتمركز زاوية الرواية ـ نهائيا تقريبا ـ في شخصية عائشة ، وتستريح الافكار في الحوار استراحة كاملة .. وكل هذا يؤدي ، طبعا ، الى ازدياد الحيوية في القصة والى استقرارها ، وبالاضافة لذلك كله ، الى عمقها ..

ان كثيرا من الملاحظات يمكن ان يسجل في نطاق التعليق على الناحية الفنية في الرواية وعلى لغة الرواية ايضا ولكن كل تلك الملاحظات ـ تقريبا ـ يظل بلا اية قيمة امام مادة الرواية نفسها .. وليست هذه الجملة الاخيرة قاعدة عامة بقدر ما هي ملاحظة تختص بالجانب النسائي في الرواية العربية المعاصرة ، ان كثيرا من كاتبات الرواية يتماكن اسلوبهن تملكا شبه كامل ويسيطرن على ادق دقائق التكنيك ، ولكن هذا الغلاف اللامع لم يعد يجوز على عطش القارىء لشيء حقيقي في الداخل ، وبعد كل هذه السنوات يبدو انه من الممكن اكتساب القدرة على امتلاك التكنيك ولكن يبدو من المستحيل ان يكسر الكاتب ـ او تكسر الكاتبة ـ الطوق الضيق المرسوم حول القدرة على الالتقاط والفهم والاستنتاج ، ولذلك فان قيمة الالتقاط والفهم والاستنتاج ، في « لن نموت غدا » تبقى بالنسبة لنا اكثر اهمية من التكنيك حين ننظر الى الرواية كجزء من « قضية » لها ابعادها المكانية والزمانية .

ليلى عسيران ، في لن نموت غدا حققت شيئا هو اهم ـ في نظري ـ من كل الملاحظات النقدية السلبية التي قد يكون من غير الصعب تسجيلها : لقد كتبت روايتها دون ان تدس قلمها في تلك الظاهرة الشائعة هذه الايام والتي يلتقطها ـ تماما وبالضبط ـ التعبير الانكليزي INTELLECTUAL SNOBISHNESS حين يحاول الكاتب ان يوهم القارىء بان الابعاد التي يقصدها للاحداث والنماذج اكثر عمقا وتعقيدا وعبقرية مما هي في الواقع ، فينتهي به الامر الى الهذيان المحض الذي لا طائل وراءه .. وهذا كله كان ذا اهمية كبرى لمجموع العمل، ذلك ان انهمار المؤلفة على المضمون الواضح جدا في رأسها قد ادى الى اهمالها موضوع التكنيك : لم تواجه لاية لحظة مشكلة « تغليف » الفكرة و « تفميضها » و « تبعيدها » ورسم هالة مظهرية حولها وجعلها اشبه بالتابوت عن طريق استغلال مزايا التكنيك في هذا الخصوص وتجنيده لخدمة « الادعاء الفكري » .

قولنا ان ذلك اكثر اهمية من التكنيك ، لذاته ، لا يعني مطلقا انه صواب ومؤهل فبالرغم من هذه الملاحظة فان التكنيك في « لن نموت غدا » ككل يبقى اضعف مما يجب وكان من الممكن ـ لو حسن ـ ان يلعب دورا هاما في الرواية كلها ..

* * *

« لن نموت غدا » ، كتاب جيد لكاتبة واعية ، يظل مستقبل المؤلفة أهم منه بكثير .

غسان كنفاني

في الاسواق

تأملات وجودية

بقلم الدكتور

زكريا ابراهيم

- لون جديد لم يعرفه الادب العربي من قبل
- خواطر ويوميات تشتعل بالفكر والحياة وتتناول مشاكل الوجود والموت والعدم والظلام ، وتذكرنا بيوميات كيركجورد وغابرييل مارسيل .
- مذكرات حية تلوح كلمع من النجوم وسط حلكة الجفاف الاكاديمي .
- كتاب هام يعيش قضية « الفكر » وسوف يكون بدء سير في طريق جديد من طرق التعبير بالعربية

الثمن ٢٥٠ ق.ل

منشورات دار الاداب